

الكنيسة ومفهوم العنصرية القومية: بين ايديولوجية العلمانية و لاهوتية المسيحية

جورج ايشو

مقدمة لابد منها...

لو بحثنا في مفهوم القيم الاجتماعية سوف نجد ذلك المفهوم الذي يتكون من خصائص أو صفات تولد العادات و المبادئ الأخلاقية التي يتقبلها ويمارسها الفرد في الكثير من تفاصيل حياته اليومية. تصبح هذه القيم، في ما بعد، الأداة الفعالة للحفاظ على النظام ووحدة التماسك الاجتماعي، وايضا المعيار الاساسي للحكم على أنماط السلوك الفردي. السلوك الذي ينفاد بعد ذلك باهتماماته الاجتماعية، وبقدراته الفكرية والعملية، وعلى عمل علاقات اجتماعية قوية مع الآخرين وذلك لبناء نسيج اجتماعي متماسك ومتجانس. وهذه القيم الاجتماعية، اساس سلوكها الاخلاقي- او الايديولوجي في حال خلطها بمفاهيم علمانية- منوط بمفاهيم مختلفة باختلاف انتماء الانسان المذهبي و متغيراته الثقافية، مما يجعلها قيم شبه مستقلة، بل منقادة، غير ثابتة¹، ممتزجة، من الصعب فصلها عن المفاهيم المذهبية التي اكتنفتها، كالدينية، او العلمانية، او غيرها من المفاهيم المذهبية؛ بالرغم من ان ذوي الاختصاصات الاجتماعية واللاهوتية يرون بأن القيم الاجتماعية لم تكن في اساسها متأثرة تحت متشعبات مذهبية كثيرة، بل كانت ذات طابعين مذهبيين فقط لا ثالث لهما: ديني او علماني، استقت منهما مفاهيمها الاخلاقية او الغير اخلاقية التي اعتنقتها الفرد منذ بداية حياته الدنيوية. من بين المفاهيم الغير او اللاأخلاقية التي تتولد لدى الانسان وذلك تحت تأثيرات مفاهيم ثقافية مختلفة والتي لها ما لها من ايديولوجيات كيدية ذات ديباجة علمانية هو مفهوم العنصرية القومية؛ المفهوم الذي يُحدر ويُفتت اغلب المجتمعات ذات المزيج العرقي التي مُرست ولا تزال تُمارس فيها نوعاً من أشكال التمييز العنصري القومي.

ايديولوجية علمانية

متخصصو علم الاجتماع يرون بان للعنصرية القومية مفاهيم علمانية مختلفة لها تشعبات فلسفية واجتماعية متعددة النظريات- ونحن لسنا في صدد اعطاء تفسير شامل عنها- تتجلى تأثيراتها في ضل غياب ثقافة التقبل للطبيعة التعددية بين الطبقات الاجتماعية وطوائفها لتكوّن مظاهر جديدة بأشكال مختلفة تثير قلق المجتمع. وهذه المفاهيم الفكرية تصبح سلوكاً اجتماعياً شاداً وذلك بسبب المتغير الثقافي الدخيل الذي يصيب المجتمع. لكن من الناحية العلمانية، في الكثير من الاحيان قد تسوغ افعال السلوك العنصري، القومي على وجه التحديد، في حالة وجود ايديولوجية عنصرية حقيقية تولد مصالح لترابط او لتعزز مكانة الاطراف المعنية. واكثر الاشكال وضوحاً للعنصرية القومية يتم العثور عليها اليوم هي التي يضيف عليها طابع مؤسسي (institutionalized racism) والعنصرية المؤسسية تحكمها معايير سلوكية تدعم ذلك التفكير العنصري الذي يثير العنصرية الفعالة. في اي الاحوال، الضحية يبقى المجتمع نفسه الذي يتكون من الفئات المعنية والغير المعنية في ذلك الصراع السلوكي.

ومن امثلة العنصرية المؤسسية التي بدأت تلوح بوادرها في افاق شعبنا البابلي-الاشوري نجدها اليوم تتجلى في فكر الكنيسة المعاصرة. اذ لم يعد مخفياً لمتابعي نشاطات كنائسنا النهج والانعطافات الفكرية العلمانية التي بدأت تنسم بطابع العنصرية (او التمييزي) القومية، ان صح التعبير، والتي شرعت الكنيسة بتبنيها خلال مسيرتها المعاصرة؛ فأيديولوجية بعض الكليريكين العلمانية بدأت تتضح معالمها في الكثير من المناسبات التي فيها لم ولا يتوانو في توضيح التمييز العرقي والقومي الموجود بين ابناء امتنا المسيحية سواء ان كان على الصعيد التاريخي او الكنسي او السياسي. بلا شك هذا الانعطاف او النهج مبرراته، من الناحية العلمانية، تساغ نتائجه من قبل داعمي فكرة التمييز العنصري والذين هم اساساً النواة الاولى التي اوجدت وبلورت هذا النهج الجديد في فكر الكنيسة المعاصرة. وانا اؤكد على انه نهج جديد اذ لم تكن

الكنيسة ملمة به قبل ذلك، غير ان هذا الشيء تغير كليًا بعد ان اقحم عرابو التميز العنصري الأيديولوجيات العلمانية في مسيرة الكنيسة المسيحية. لهذا وغيرها من الاسباب بدأت العلمانية تتوغل وتتجذر وتزاحم الفكر المسيحاني، بحيث أصبحت الكنيسة اسيرة افكار علمانية عنصرية تهدف لزراع الانقسام بين ابناءها ولكبح مسيرتها التبشيرية التي كرزت الكنيسة مسيرتها من اجله .

لاهوتية المسيحية

في المسيحية يرى علماء اللاهوت بأن الأيديولوجيات العلمانية والسلوكيات العنصرية المعاصرة ليست الا حلقة طويلة في سلسلة الحضارة الانسانية. تأصلت في واقع الخطيئة منذ نشأة الإنسانية، كما يمكننا أن نرى ذلك في الروايات التوراتية الكثيرة. ويعزز العهد الجديد هذا التفسير من خلال محبة الله للبشرية في صون كرامة جميع الأشخاص ووحدهم الأساسية واحقيتهم في الإخاء، لأن الجميع يوحدتهم المسيح. يظهر هذا الشيء في سر التجسد الذي اعلن الله ذاته في شخص ابنه يسوع المسيح الذي هو صورة الله غير المنظورة. لذلك، عندما نأتي لتصنيف العلاقة بين امة وامة او بين ابناء الشعب الواحد، من المهم أن نضع جانبا الأفكار الحديثة العلمانية التي تتجذر في العرق- على الرغم من أن حواس الأمة والانساب واللغة والقبيلة والمملكة موجودة في قصة خلاص الكتاب المقدس، إلا أنها ترتبط بشكل مباشر بالعلاقة البيولوجية. غير ان من وجهة نظر الله، الخلاصية، النسب الأكثر أهمية هو الروحي: الموت يأتي للنسب البيولوجي والحياة للنسب الروحي. وهنا يأتي دور الكنيسة باكليريكيها في وسط هذا العالم المتقلب لتعزز وتنمي العلاقة الربانية بين البشر والله. فالشعب الذي استبد وصلح مع الله يشكل جسد وروح واحد في المسيح. عيد العنصرة خير دليل على هذه الوحدة، اذ ان العالم آنذاك بمختلف انتمائه القومي ووحدته تجسدت في ألسنة النار التي كانت ترمز للروح القدس.

لذلك، من المنطقي ان يتذكر الاكليريكيين دائماً الهدف المسيحاني الذي يتوجب عليهم ان يحققوه خلال مسيرتهم الرعوية الا وهو وحدة الجنس البشري في شخص المسيح- على الاقل هذا ما يؤكد عليه بولس الرسول في اغلب رسائله. الانقسامات العرقية والقومية وغيرها من المُسميات العلمانية ألغيت بصلب المسيح على خشبة الصليب. لكن في نفس الوقت، لا يجب ان يُفهم هذا الشيء على انه بمثابة نكران للانتماء القومي! كلا، لسنا نقصد هذا ابداً. ما نقصده هو ان لا يكون شعورنا القومي اداة في يد الايديولوجيات العلمانية. وهذا ما نتمناه ايضا من رعاة كنائسنا. فلا يمكن ان يتعرج المؤمن بين الفرقتين، (العلمانية والمسيحية). فالأيديولوجية العلمانية لها نظرة مغايرة تماماً عن التي نراها في لاهوتية المسيحية .

الخاتمة

لسنا ضد القومية او ضد التفاخر بأمجاد الحضارة البشرية، لكننا ضد زرع الكره والعنصرية بين ابناء الكنيسة . المبادئ الاخلاقية التي تنسجم مع الدعوة المسيحية يجب ان تتجرد من الشوائب الايديولوجية. وايضا على الكنيسة أن تدرس بوضوح شروخ العنصرية القومية؛ وان ترفضها لا بل ان تدين التصرفات التي من شأنها ان تولد العنصرية القومية؛ وان تتبنى دائماً المواقف الإنجيلية التي تدعو الجميع إلى التصرف بطريقة عقلانية روحانية تلغي الكراهية وتزرع المحبة التي بدونها لا حياة لأبناء الكنيسة .

¹ غير ثابتة في الايديولوجيات.